

فردريك اوزنام

١٨١٣ - ١٨٥٣

علم الاب اعاضوس سر كيبس
من الرهانية النورية

اصفقت « شركة القديس منصور دي بول » هذه السنة في فرنسا
واوربا وسائر انحاء العالم المسيحي ، بذكرى مرور المئة سنة
الاولى على وفاة مؤسسها فردريك اوزنام (١٨١٣ - ١٨٥٣) .

وهذه الذكرى حاضرة ولا شك في اذهان قراء المشرق . كما ان حياة
هذا الرجل العظيم ليست ، على ما نظن ، بمجهولة لديهم . لذلك لم يكن من
حاجة الى الدخول في تفاصيل تلك الحياة الحافلة بجلال الآثار والمبر . فنكتفي
هنا بتلخيص خطوطها الاساسية الكبرى التي لا بد منها لفهم سياق الكلمة
التالية . وقد جربنا فيها ان نستقصي عن الروح الذي سيطر على حياة اوزنام ، ووجه
جميع اعماله ، وكان ميزة صفاته وواسطة العقد في فضائله والدعامة الكبرى
للاخلاق السامية التي رفعته الى درجة عالية من الكمال الانساني والمسيحي .
عنتنا بها فضيلة الايمان .

- ١ -

ولد فردريك اوزنام في ٢٣ نيسان ١٨١٣ في مدينة ميلانو وهي اذ ذاك
مقاطعة افرنسية وابوه ضابط في الجيش المرابط فيها .
وفي سنة ١٨١٦ عادت عائلته الى مسقط رأسها في مدينة ليون . وبلاد
فرنسا ما تزال تغور بالثورات والانقلابات .
وبين ١٨٢٣ الى ١٨٢٩ تلقى دروسه الثانوية في الكلية الملكية في ليون .
وفي ١٨٣٠ قرر والده ان يعلمه الحقوق وادخله مكتب احد المحامين
للتسرس . وفي هذه السنة سقط حكم شارل العاشر وقام على العرش مكانه
لويس - فيليب .
وفي ١٨٣١ بدأ حياته الادبية والاصلاحية بمقالات في دحض مذهب السان-

سيونيه . وقد نشرها في ما بعد في كتاب مستقل فكانت ، مع صفر سنة ،
مثار اعجاب الادباء .

وفي هذه السنة انتقل الى باريس لاقام دروس الحقوق . وكان من حظّه
ان تعرف بالعالم المشهور اندرليه - ماري امبير Ampère الذي ازله في بيته
واسكنه غرفة ابنه المتغيب اذ ذلك في المانيا . . . وقد كان لمعاشره هذا العالم
العظيم اثر هام في نفسه .

وفي السنة التالية ١٨٣٢ انشأ مع بعض رفاقه مؤسسة «محاضرات التاريخ»
بقصد توسيع معلوماتهم الصحيحة والمناقشة المعيدة في ما هم فيه من دروس .
وفي ١٨٣٣ . وكان قد استوعب في نفسه حاجات الشبية المتبقية ، التس
من رئيس اساقفة باريس انشاء محاضرات فلسفية دينية في كاتدرائية نوتردام .
وفي هذه السنة عينها ، وللغاية نفسها ، انشأ مع ثمانية من رفاقه شركة «محاضرات
الرحمة» التي اتخذ لها في ما بعد القديس منصور دي پول شيفاً وسماها باسمه
« شركة القديس منصور دي پول » .

وفي ١٨٣٥ مجت مساعيه الموفقة لدى السلطة الرجعية . وارتقى صديقه الاب
لاكوردير منبر نوتردام مفتتحاً محاضراته الشهيرة . فكان ذلك فتحاً عظيماً للكنيسة
ونصراً للنفوس الطيبة ومصدر غبطة وتزينة لاوزنام . وفي هذه السنة نال
شهادة الليسانس في الآداب . كما نال سنة ١٨٣٦ شهادة الدكتوراه في الحقوق .
ثم في ١٨٣٩ ، قدم لشهادة الدكتوراه في الآداب اطروحيته عن « دانتى
والفلسفة المسيحية » و « القديس فرنسيس دي سال وتجديد اللغة الافرنسية »
فأحرز نجاحاً عظيماً رغم ما في موضوعه المزدوج من اشواك .
وعلى اثر ذلك سأم اليه تدريس «الحقوق التجارية» في مدينة ليون . فلمع
تجبه في التعليم . وبدأ حملاته في الاصلاح الاجتماعي .

وفي ١٨٤٠ خرج الاول في مباراة ال (Agrégation) التي انشأها الحكومة
سنة ذلك لاختيار الاساتذة الاكفاء لجامعتها . وكان من نتيجة ذلك تعيينه
استاذاً للآداب الاجنبية في السوربون ، وهو لا يزال في السابعة والمشرين من
عمره . وبدأ سلسلة تلك الدروس التي نالت رغم وعودة موضوعها نجاحاً عظيماً
ورفعت شعبية صاحبها فوق جميع زملائه .

وفي ١٨١١، بعد ان تزوج وقام برحلة الى ايطاليا، استقر نهائياً في باريس .
 وفي ١٨١٦ بدأ المرض يتعبه واضطره الى اتخاذ سنة راحة في ايطاليا .
 وفي ١٨١٨ اشترك في نشر جريدة «العصر الجديد» (Ère Nouvelle) وانشأ
 افتتاحيتها الاولى داعياً الى الاصلاح الاجتماعي الحقيقي .
 وفي ١٨٥٠ عاد مرضه الى اتعابه . واضطره الى التنقل في سياحات مختلفة
 لانتجاع الراحة وزيادة المعارف .

وفي ١٨٥٣، بعد ان قضى شهوراً في ايطاليا ، احس بقرب الاجل . وهو
 في الاربعين من عمره . فطلب الرجوع الى وطنه . ولكن الموت داهمه وهو
 بعد في مرسيليا ، في اوج الشهرة واحتمار الفكر والحاح الرغبة في العمل . فكان
 لموته هزة ألم عميم .

وفي سنة ١٨٥٥ طبعت آثاره كاملة في بضعة عشرة مجلداً مع مقدمة بقلم
 صديقه جان - جاك امبير (Ampère) .

- ٢ -

لا شك ان اسمى الفضائل وأعظمها ، كما يقول بولس الرسول ، انما هي
 المحبة . فهي وحدها تبقى على الزمان والابدية ، بينما كل فضيلة سواها تقف
 وتزول على عتبة ابواب السماء .

ولكن ما هي المحبة بدون الايمان ؟

وكيف يجب الانسان ما لا يعرفه ؟ فالايان اذن اساس معرفة الله وصفاته
 السامية، والطريق الوحيد الى محبته ومحبة القريب والحلائق كما يرضى هو .
 والى ذلك ولا شك نظر المجمع التريدينتي المقدس حين شبه الايمان في
 حياة الانسان بالجذور في حياة الشجر .

وفي الواقع ان الشجرة لا تنمو وتحصب وترتفع عالية ، واسمة الاغصان ،
 غضة الاوراق ، الا وجذورها عميقة في الارض تمتص منها غذاءها وتوزعه باعتدال
 على سائر الاجزاء .

والنفس السامية الرغائب ، المتطلعة الى العظامم ، المتشوقة الى العمل والبناء .
 والاصلاح يجب ان يكون الايمان اساساً لبنائها . وجذراً مخصباً ينضج اغصانها .

بل هو الجبر الرفيع الذي يجب ان تعيش فيه يوماً فيوماً وساعة فساعة حسب قول بولس الرسول : « ان البار من الايمان يحيا » .

فالايان اذن اعظم قوة للانسان في حياته . وامتد صلة بين الخالق الكلي القدرة والمخلوق الكلي الضعف ، بين مصدر الخير واداة توزيعه ، بين ينبوع الغزير والنفس العطشى . وهو الى ذلك ، وبسبب ذلك ، اكل فعمل عبادة واكرام يزيده العقل البشري الفاهم الراعي الى الله مصدر كل فهم وغاية كل عقل . لانه خضوع مطلق وثقة مطلقة واعتراف بخدمنا امام الوجود المطلق . وهذا الايمان يظهره الرجل العالم الواسع المدارك مقراً لا بما يضاد العقل بل بما يفوق قدرته من اسرار وغوامض ومعارف تجبي . عن طريق الروحي والسلطة لا عن طريق القياس والاختبار والحس ، تجيد للعقل الالهني والعقل الانساني في آن واحد .

٥

وقد كان هذا الايمان المتين الرصين بادياً بين فضائل اوزنم المدينة . كالقائد الجبار المنتصب في وسط معكوه يحيه ويشيع فيه القوة والنشاط . بل كان كما قال عنه لاكوردير « الرباط السامي والمبدأ الوحيد للفضائل التي مارسها والصدقات التي نعم بها » .

ورثه عن اسرته التقية . وقد اثر عن احد اجداده ، وكان استاذ رياضيات ، قوله ، في مرض مشاحنات فلسفية : « على اللاهوتيين ان يتباحثوا ، وعلى الكنييسة ان تجدد ، وعلى استاذ الرياضيات ان يبلغ السماء على الخط المستقيم » (اشارة الى القاعدة الهندسية المعروفة من ان الخط المستقيم هو اقرب طريق بين نقطة واخرى) .

وأثناء مجده وارادته . فاذا استثنينا فترة شك قصيرة انتابته ابان درسه الفلسفة وتقلب عليها بمساعدة استاذه ، نراه يحتفظ بصفاء ايمانه مدى حياته كلها بل ينسبه يوماً عن يوم ويحميه من غيوم الكفر والريب والاعمال . وقد قال يوماً انه لم يكن في الدنيا شيء اغر عليه من ايمانه ووطنه ومن خدمة الحقيقة وعمل الخير

وذلك رغم الصعوبات الكثيرة في طريقه . فقد نشأ في عصر اجتاحته

الروح الثولتيرية الملصدة، وهدمت التورة ما تبقى في النفوس من العقائد الالهية. ثم جاء باريس وهو شاب تقي نقي حيي، فاذا به في محيط فاسد فاسق. وسمع محاضرات اساتذة السوربون وكلها طمن في الدين وتقويض لاركان الايمان. فاعتصم بقوة ارادته وحافظ على كثره الروحي والاخلاقي. ولم يكن له من تغرية في تلك المحن اقوى من اللجوء الى محبة الله والثقة برحمته وعنايته. بل ان المحن والصعوبات نفسها انما كان يتغلب عليها بالالتجاء الى تغريات الايمان ومحبة الله. ففي عزله في باريس بعد فراق بيته وذويه، وفي حزنه بعد موت كل من والديه، في مكافحة الضلال بين مطييه وأقرانه في السوربون، وخاصة في مرضه الاخير واقتراب ساعة اجله الذي سيوقف مجرى نشاطه ويجرمه مواصلة الجهاد والخدمة. دائماً كان يجد بقرب الله وفي شدة ايمانه برحمته القوة والنزاهة والسوان.

وكان يعلم « ان ركن الايمان هو السلطة وليس العقل. وان العقل كلما مشى قدام السلطة الالهية، ضل سبيله ». ولذلك وضع رقبته تحت نير المسيح. واخضع عقله لتعاليم الوحي والسلطة ومشي الى هدفه مخلصاً حياته وقوته ونفسه وعلمه لخدمة هذا الايمان. وحفظه كاملاً لا يتجزأ. « حاشا لي ان انكر واحدة من عقائد ايماني الذي اضحي بحياتي في سبيله. اجل احتي تضحية الحياة، حتى الشهادة. والشهادة كما يعرفها هو انما هي اعطاء الذات طوعاً، اعطاؤها كاملة، اعطاؤها حتى الموت يوماً فيوماً في سبيل محبة الله وخدمته. افلم يهدم صحته بطول الدرس والتأليف واللقاء، قبل ان يبلغ نصف عمره؟ وقد اضطرته الظروف يوماً الى اعلان ذلك في وجه بعض من لم يفهموا روحه. قال: « انك انت صحي تخدمت في الثامنة والثلاثين لولا رغبتني في الدفاع عن المسيحية؟ » على ان ايماناً كهذا لا يقوم ولا يدوم بلا تغذية وعناية. وقد كان اوزنام يغذيه بمطالعة الانجيل والتأمل في معانيه السامية كل صباح. كان يغذيه بمطالعة تاريخ الكنيسة المجيد واعمال اجبارها العظام. وقد كتب يوماً الى احد زملائه من اساتذة السوربون: « لو اذك لم تكف بالوقوف على عتبة المسيحية، بل عملت مثلي، فمشت في داخلها، وقضيت ثمانية عشر عاماً في درسها وغذيتها نفسك باقوال هولاء. الملائنة العظام من آباء الكنيسة لوجدت في ذلك ثروة

تليق بعقلك السامي ، ولما جلت من التسامح والحرية والاحسان ، ثمرة من ثمار الثورة الافرنسية . فهذه الفضائل انما نزلت من على اقدام الصليب .
كان يغذيه بالصلاة الوضيمة العميقة حتى اصبحت حياته صلاة متواصلة . فلم يذهب الى القاء محاضرة او درس الا بعد ان ركع وصلى لتلا يقرب على لسانه شي . من الضلال . ولم يدخل كنيسة الا جثا على ركبتيه واستغرق زمناً طويلاً في بحران صلاته يتاجي الله بمجراة ايمانه .
كان يغذيه بالاشتراف بسر الايمان الاعظم . فيحضر القداس ويتناول القربان المقدس كلما استطاع .

اما مجاهرته بايمانه فنذكرنا بمواقف كبار القديسين من قبله . وهو القائل :
« اني سأظل متسكاً بأعمدة الهيكل حتى ولو تهاوت فحطتني في سقوطها »
اكانت اقوى من هذا الاعلان عبارة القديس اغوسطينوس : « انا مع روما حتى ولو قادتني الى الجحيم . » ؟

وذلك انه وجد من علمه مثباً لايمانه . « فقتل تجمد الله في اعماق قلب العلم »
أفكانت نفسه السامية ترى بعين الروح تلك الحقائق العويصة بخلاف الاعتياديين من المؤمنين ، فيعلن مع يولس الرسول : « اني اعرف بين آمنت » ومع يوحنا الحبيب : « الذي رأيناه ولسناه وسمعناه به نبشركم » ؟

حقاً هذا هو الايمان الذي طلبه المسيح من تلاميذه وقال عنه انه ينتقل الى الجبال . وان ما عمله اوزنارم في نفوس معاصريه كان اعظم من نقل الجبال .

- ٣ -

ومثل هذا الايمان الراسخ يجز وراه ، ولا شك ، ثقة بالعناية الالهية الابوية المحبة التي بدون ارادتها لا تسقط شجرة من رزوسنا ولا يصيبنا ذرة من خير او شر ؛ واستلاماً بنوياً فرحاً لتدابيرها السامية حتى ما كان منها غامضاً صعب الفهم لا يسوغه عقلنا البشري الضعيف

ففي سنة ١٨٣٢ انتشر في باريس وباء الكوليرا بسعة سرعة حتى كان معدل الوفيات فيه نحو مئة وثلاثين شخصاً يومياً . واندفع اوزنارم في خدمة المرضى دون تحفظ او خوف . وظل مع ذلك بعيداً عن الخطر ولم يقرب الرباه من بيت امير حيث كان يسكن . فنسب ذلك الى رحمة العناية الالهية .

واستشهد بقول المزيمر : « يسقط عن جانبك أئوف وعن يمينك ريوات . واليك
لا يقرب السوء . »

ومن اقواله :

ان تدابير الله تتم على قوالي الزمان . واعظم الناس حكمة هم من تركوا
يد الله تقودهم . فلنعمل اذن ما نستطيع ولنترك الباقي لعنايته . قليلاً من
الثقة بالآب الهاموي الذي يدون ارادته لا تسقط شجرة من رأسنا .»

وحين كانت المعركة حامية حول تعيينه استاذاً في السوربون ، والمنافسون
يشيرون عليه الحفائظ ، وهو من هو في عقيدته المسيحية . خاف ان يخسر هذا
المركز الممتاز الذي يستطيع فيه ان يخدم الله ودياته . ولكنه عاد ورمى
بنفسه بتواضع بين يدي الله قائلاً : « اني ارجب ان يستلم الله هو . نفسه زمام
هذه القضية الهامة . واذا رأى ان فشلي فيها اكثر فائدة لخلاصي . فلا اطلب
نذاتي سوى الرسوخ في عقيدتي والاطشنان في داخلي . حتى ولو ظلت اسباب
معيشتي غير مؤمنة » . ومن اقواله :

- لقد عوقبتنا نحن الكاثوليك لاننا وضعنا مجدنا في كبار كتابنا اكثر
من اتكالتنا على قدرة الله . ان نجدتنا هي من فوق .

- وفي احد الازمات كان يردد : « لا اعلم الى اين تقودنا يداؤه . ولكنني
وانت انما تدير بنا الى حيث ترى موافقاً » .

- وفي مرضه الاخير ، وقد ازدادت نفسه سوءاً بقدر انحطاط قوى جسده .
كان يردد بثقة وثبات : الهى . اني اريد كل ما تريده وما دمت تريده ومثلما
تريده ولانك تريده

وذاك هو الاطشنان في قلب الله والتسلم التام لمشيئته الابوية الذي ليس
وراءه غاية .

- ٤ -

ونتيجة طبيعية اخرى لذلك الايمان : التواضع .

قال الاب لاكوردور : « لقد تعلم اوزنم فلسفة صحيحة فجعل من المسيحي
رجلاً حكياً . ومن الحكيم انساناً وديماً لا يشمخ بعلم ولا بفضيلة .

تلك كانت خلاصة روحية اوزنم . فانه رغم كل ما امتاز به من عمق

المعرفة ، وسمو المكانة ، وسعة التأثير في عصره ، وعظم المشاريع التي حققها .
والخدم التي اداها ، ظل رديماً متواضعاً يعرف ان الخير والبركة هما من عند الله
وان الانسان ليس سوى اداة يستخدمها الله متى شا . وكما يشاء .

ولم يكن تواضعه زائفاً او متصنعاً فينكر ما لديه من مواهب وقوى وما
يتم على يده من اعمال . بل مع اقراره بذلك ، رده الى مصدره الحقيقي .
واعترف « ان كل موهبة كاملة انما هي من فوق من لدن ابي الانوار » .

وهكذا رأيتاه بسب كل نجاح حازه او خير عمله الى رحمة الله ومحبتة
والى سعي اصدقائه وعنايتهم وتسامحهم ازا . ضعفه .

ورأيتاه يرفض مرتين رئاسة الشركة التي اسما وجعلها هدف حياته وغاية
امانيه ، مكثفياً فيها بالموضع الخفي المتعب .

ورأيتاه يرفض الخاط اصحابه في ترشيحه للنيابة عن مدينة ليون مدعياً انه
دون ذلك قدرة ومعرفة وعافية .

ويستاء من اسراع عمدة الشركة الى نشر خطبه الرائعة بحجة ان ليس فيها ما يستحق
النشر . واكثه يعود فيستلمه عندما يقال له ان ذلك مفيد لانشاء فروع جديدة .

ورأيتاه ، وهو على فراش الموت ، يصرح انه لم يعمل قط لمجده الشخصي
ولا لسامع مديح الناس . بل لخدمة الحقيقة فقط .

وبقدر ما كان شديداً على نفه قاسياً في محاسبتها كان رحيماً متسامحاً في
معاملة القريب .

وبقدر ما كان ببقاه يرتفع في المجتمع وعند العلماء ، كان تواضعه ينسر
وجهه للفقراء وخدمتهم يزداد ، ويحاور انه يستفيد من زيارتهم اكثر مما يفيدهم .

وهذا التواضع الذي يمارسه بربيه لشركته باسرها ايضاً ، لعلمه ان الله
يحارب المتكبرين ويولي المتواضعين نعمة . كتب سنة ١٨٥٣ من ايطاليا

يصف لاصدقائه ازدهار فروع الجمعية هناك واختم بقوله : « لكن مهما عظم
نجاح الشركة يجب الا نتكبر . بل بالعكس يجب ان يحملنا ذلك على الاتضاع .

ان عشب الحقل ، مهما امتد واتسع ، لا يتكبر ولا يعتبر انه صار سديانة .
وفنحن مع ازدياد عددنا وازدهار عملنا ، لتبقى على بساطتنا وضمتنا . ولا نقابل

ذاتنا بالمؤسسات العظيمة التي انماها الله في كنيسته » .

ويذهب الى ابعد من ذلك بكثير فيرغم مراراً ومراراً في رسائه « ان امراضه انما جاءت قصاصاً لخطاياها » .

وقد نعجب من هذا لدى علمنا ما كانت عليه حياته من الطهر والبعد الشديد عن الخطيئة والمسير الدائم في جانب الفضيلة والمحبة . وقد يحظر لنا ان في مثل هذه المزاعم شيئاً من التصنع او الرياء . والحقيقة ان مثل هذا التعبير معروف عند كبار رجال الله . حين اسفهم على اهانة الله والتقصير في الواجب .

فالانسف الخطيئة لا يقاس فقط بفضاعتها وثقلها . بل يقاس ايضاً بدقة ضمير مرتكبها . وكلما تعمق الانسان في معرفة الله عظمت في نظره شناعة الخطيئة . - واذا اعلن قديس انه اعظم خاطئاً ، فلا يعني ذلك انه احصى جميع الخطاة وسرغور ضميرهم وقاس خطاياهم بخطاياهم . ولكنه يؤمن مخلصاً انهم لو نالوا ما نال هو من نعم لما سقطوا مثل سقوطه .
 « واذا كنا نحن لا نشعر هذا الشعور ولا نستطيع تقديره ، فلأننا لا نزال اطفالاً في الايمان . قاصرين في المحبة ، لا نعرف ان نقيس غلظة الله وحقارتنا .

- ٥ -

وقد يستطيع الانسان ان يتضع ويخضع امام الله الخالق الاعظم للملى الكون بوجوده ورفيقته وجلاله . ولكن التواضع الصحيح انما يبدر في الخضوع والاتضاع امام اشخاص هم في الظاهر ناس مثلنا ، وربما اعتبرناهم اقل منا قدرأ . ولكنهم في الحقيقة يحملون سلطة الله لسيير الناس في سبيل الخير والصلاح والخلص . - ذلك شأن السلطة الكنسية في العالم

وقد امتاز اوزنام طيلة حياته بالطاعة الودية للكنيسة وممثليها . والخضوع لتعليماتهم واوامرهم بكل حب وسرور .
 فلم يرضَ قط ان ينشر مقالاً او كتاباً الا بعد تثبته من رضى السلطة الكنسية عنه .

وكان احترامه للكهنة والاساقفة ولكل ذي سلطة دينية بالغاً آخر الحدود . وكان جل ما يرمي اليه ان يدافع عن اسم الكنيسة وتاريخها وآبائها . حتى لقد اعتبر ذلك دعوة خاصة به لا يستطيع ان يتهرب منها .

ومن اقواله في هذا المعنى :

- يجب ان يظل سلطان المسيح حيث وضعه المسيح : في يد الاساقفة .
- نحن ابنا الكنيسة قبل ان نكون ابنا السوربون . وليس في ذلك
عضاضة . ولن اكون خائفاً ولا جباناً .

وحين زار البابا بيوس التاسع على اثر انتخابه كتب يقول : ... ثم قبلت
خاتمه . هذا الخاتم الذي وقع منذ ثمانية عشر قرناً ذلك العدد العظيم من الاعمال
والآثار الخالدة .

وحين حرمت الكنييسة مؤلفات الاب لامنه . وحين حرمت كتاب جوسلين
لل امرتين ، وكانا من اغراضه ، لم ينظر الى الامر نظرة بشرية انانية .
بل وقف بجانب السلطة ، ونصح لصديقه ان يتلافيا الشر الذي اتياه ، ولم
يعد حديثه عنها الا عاطفة رحمة واشفاق .

وهو امر يقتضي في العصر الفواتيري . الذي عاش فيه قوة ارادة ، وصلابة
عقيدة وشدة في الجراءة لا حد لها .

- ٦ -

ذكرت الجراءة . وهي في الواقع من اظهر مزايا هذا الرجل العظيم ، ومن
اطيب ثمار ايمانه الحي العامل العاقل . وذلك رغم ما كان عليه من الحيا .
والحجل الشديد في طبعه .

انه اخذ على نفسه ان يحفظ الايمان والفضيلة في نفسه ، وان يعان هذا
الايمان مهما كلفه الامر وان يعيد ملك الفضيلة وسلطان المسيح الى نفوس
معاصريه . فيجب الا يقف دون ذلك عائق من حيا . بشري او تراجع امام
الحصوم .

ولست جراءة اوزنم جراءة الرجل الضيف الذي ينطي ضعفه بستار من
الراحة القاسية النائية ؛ ولا جراءة المتكبر الذي تأتي عليه طباع السوء ان يقر
بضعف او جهل او تقصير ، كما تأتي ان يحتمل الى جانبه ذا مقام او معرفة او نفوذ .
وانما هي جراءة المؤمن الواثق من امتلاك الحقيقة ، السخي في توزيعها ،
المتفاني في حيا حتى لا يرضى ان يرى في خدمتها « خائناً ولا جباناً » .

وهذه الجراءة مارسها كل حياته ، منذ اول شببته ، اذ اتبرى على غضارة

عوده ، يفند آراء سان سيون الاجتماعية ويبين ما فيها من شطط وسوء عاقبة . وكانت هذه البدعة تكاد تم لولا ان قيض لها الله هذا الشاب الطموح فوقف في وجهها .

وكثيراً ما اسكت اترابه الشباب المفاخرين بكفرهم او فجورهم . بل وكثيراً ما تعرض لمن هم اكبر منه سناً ومقاماً فافهمهم بوداعة وصلابة ان الانسان لا يجوز له المباحة والمجاهرة بالحاد او تقصير .

اما معاركه في السوربون ، سواء قليلاً او استاذاً . فقد كانت صفحة من صفحات الجهاد الجليل . وهو الذي تجرأ امام المئات من رفاقه ان يرد على الاستاذ جوفروي في تعاليمه الكفرية وان يناقشه الحساب في وسط محاضراته ؛ وان يجبره على الاقرار بالحق وتعليم الصواب ؛ وان يطن على مسع جميع الحضور ان اتجاه الفكر في السوربون قد تغير منذ دخلها هذا الطالب العنيد في عقيدته .

وما كاد يستلم منبر التعليم حتى جعله منبر محاماة عن المبادئ الصحيحة ، وجهد بالايان المسيحي المضطهد ، واقتناع بان السلطة للوحي قبل ان تكون للعقل ، وانه ليس من تناقض بينهما .

وفي ذكر المواضيع التي اختارها لاطروحاته وتعليه وكتبه اكبر دليل على ذلك . فهو لم يخش ان يتقدم لدى الجامعة باطروحة عن الفلسفة المسيحية في شر دانتى ؛ ولم يخش ان يثبت ان القديس فرنسيس دي سال اعظم ذي فضل على اللغة الافرنسية ؛ وان القديس توما الاكوييني اصدق من مونتسكيو في احكامه الاجتماعية . وهكذا . ومن القريب انه كان يسيطر على سامعيه ببلاعة واخلاص فائقين . حتى ان احد تمتحنه في شهادة الدكتوراه هتف في وسط الجلسة بعد سماع محاضرتة : « يا اوزنام ، لا يمكن ان يكون انسان ابلغ منك الآن » .

قبل له يوماً وهو داخل الى محاضرتة ، ان بعض الطلاب كتبوا على باب مدرسته : « مدرسة صف اللاهوت » . فلما انتهى محاضرتة ختم بقوله : « ليس لي الشرف ان اكون لاهوتياً . ولكنني افاخر بالي مسيحي مؤمن واضع كل قوتي في خدمة ايلاني » . على ان الجراءة في اعلان ايمانه والمحاماة عن عقيدته لم تمن في نظره القسوة

في معاملة الخصوم والضالين بل كان من مذهب القديس فرنسيس دي سال في ان جرة من الخل لا تفعل في التقاط الهوام فكل نقطة من العسل .
وعلى هذا كان خلافه مع الكاتب الكاثوليكي الشهير لويس قليوت الذي كان مر اللسان قاسي القلم على الخارجين عن الدين . ولذا اتهم اوزنام بمأادة اعداء الكنيسة والتسامح معهم . وقد اعلنت السلطة في ما بعد واقر الواقع ان الحق كان بجانب اوزنام .
كما ان غيرته وجرأته لم تكن تمصاً ذمياً ورجية تضيق بكل فكر جديد . فقد كان في مقدمة من يقبل الافكار التقدمية الصحيحة والدعوة الى الحرية التي تتفق مع الانجيل . وما اكثر الحرمان التي تتفق مع الانجيل . بل التي تنبثق من تعاليمه كما ينبثق الماء الصافي من ينبوع الفني السخي .
وقد صدقت شهادة لا كوردير بانه كان من العدد القليل من كتّاب الكاثوليك في تلك الحقبة الذين ظلوا موثوقاً بصدق عقيدتهم حتى النهاية وكانوا مجداً للكنيسة .

- ٧ -

شهر اوزنام باعمال الرحمة والمحبة المسيحية وبتأسيس شركة القديس منصور دي يول وسهره مدى حياته على تقدمها وتوسعها ، اكثر مما شبر بسائر فضائله وصفاته واعماله . ولا عجب وهو القائل - من بين الكثير من اقواله - :
« وددت لو طرقت الدنيا باسرها بشبكة من اعمال المحبة » .
والكلام على ذلك المظهر من حياته يستغرق من الصفحات اكثر مما يسبح المقام الآن . وانا نذكر هنا كلمة واحدة من كلماته توبينا ان عمل الخير لم يكن في نظره الا نتيجة من نتائج ذلك الايمان العظيم الذي كان يغمر قلبه المسيحي الكبير ؛ وان كل مؤسسة اجتماعية او خيرية تظل ضئيلة في هدفها ووسائلها اذا « شركة » اوزنام التي تضع الفقير الى جانب الثمني في كفة موازية لانه مثله ابن لله الآب موزع الخير والصلاح .
قال في احدي رسائله : « هدفنا الرئيسي لم يكن مساعدة الفقير فقط . لا . لم يكن ذلك سوى واسطة . هدفنا الرئيسي كان حفظ ذاتنا ثابتين في الايمان الكاثوليكي ونشره لدى القريب بواسطة اعمال المحبة » .

- ٨ -

منذ مطلع الشباب - كان اذ ذلك في السابعة عشر من عمره ا - وضع
اوزنام منهاج العمل الذي قرر ان يتبعه في حياته للدفاع عن الايمان المسيحي
واعادته سلباً الى نفوس ابناء عصره .

وليس يهنا ان يكون استطاع تحقيق ذلك المنهاج بكامله او في بعضه .
واقل ما يمكن ان يقال فيه ان تنفيذه يقتضي جهود عشرات وعشرات من
الاشخاص المجاهدين المتفانين اذا عملوا فيه حياة كاملة . فكيف به وهو فرد
لم يعيش نصف عمره ا .

الذي يهنا ان ارادة هذا الرجل الجبار ومقاصده السامية لم تكن مجرد
رغبات نظرية باطلة . وانما كانت ارادة مدركة فعالة تعرف القصد وتمضي اليه
دون تلكومها كلف من تعب . وقد عملت منه رجل عمل قلما عرف مثله .
اذ في نظره «لا يحق للمسيحي اياً كان ان يتضي حياته في الراحة بطالاً يدها
في جيوبه لا يعمل شيئاً في سبيل دينه وعقيدته ، بينما يرى الجنود يوتون في
الحنادق في سبيل الوطن ، والمرسلين يعانون الذل والشقاء في البلاد النائية في
سبيل الحضارة . »

ومن اقواله الجديرة بتأمل ابناء عصرنا : « يجب على الكاثوليك الايضوا
الوقت في التباض والتناحر في سبيل خزيات ومائل تقبل الجدل ولا يضر في
جوهرها خلاف ظاهري . »

وقد عمل وجد وجاهد . ولم ينل النجاح الذي ناله الا بالتعب والنشاط .
كان يقضي يومه . واصلاً الليل بالنهار في تهيئة دروسه وكتابة مقالاته وتوجيه
رفاقه وتلامذته . حتى هدم صحته في سنوات قليلة . ولو انه احب ان يعيش عمراً
طويلاً في الراحة والرفاهية لما مات في الاربعين ، والكنيسة في اشد الحاجة
الى امثاله .

ولكن لا بأس . ان حبة الحنطة ان لم تمت بقيت وحدها . ولكنها ان
هي ماتت تبث حياة اخصب وتعطي بدل الواحد ثلاثين وستين ومئة .

- ٩ -

على ان الله تعالى مصدر كل عدل وينبوع كل محبة . لم يترك ذاك الايمان الامل والمحبة العميقة والجهاد اخلص في خدمته ، دون مكافأة وتعبية حتى على هذه الارض . .

ففي المجتمع نال اوزنام ببلاغته السامية واخلاصه التام نجاحاً علمياً وتقديراً لدى زملائه وتلامذته فوق ما كان يظن ويرجو هو نفسه . فكانت دروسه ومحاضراته احب شي . الى قلوبهم يقبلون عليها اقبالاً منقطع النظير ويقاطعونها بالتصفيق مرات ومرات . معجبين بتأنيته خلق صاحبها ورسوخ عقيدته وغزارة علمه . ولم يكونوا يفضنون لتغيب استاذ او تخلفه عن الصف غير الاستاذ اوزنام حين يضطره ثقل المرض الى التخلف . حتى لقد اضطر مرة ان يقوم من فراشه ويحيى الى الصف مستنداً الى اكتاف اصحابه ليلي رغبة الطلاب . فبلغ في تلك المحاضرة اسمى درجات البلاغة والجملة . وكانت آخر دروسه .

ومكافأة اخرى اثن من التصفيق والنجاح الدنيوي . بل اثن من النجاح المعنوي في خدمة الدين وعمل المحبة . عنيت ذلك السلام الذي نعم به طول حياته . سلام وطمانينة في عياله ؛ سلام وطمانينة مع الناس ؛ سلام وطمانينة في حياته الداخلية . وفي الحقي ، من الذي يستطيع ان يكون عنده ايمان مثل ايمانه واستسلام بين يدي العناية الالهية مثل استسلامه ومحبة مثل محبته ، ولا يكون السلام منتشرراً في كني جوارب نفسه ؟ وكان هذا السلام ينمو عنده كلما تقدم في السن حتى بلغ الذروة الملياً في ايامه الاخيرة . فقد احتمل اوجاعه وانتظر مرته يبدو . ورضى يكاد يشبه النبطة . وقد اجاب يوماً بيده الكلمة البديعة الرفيعة على سذاجتها . وكان بهض ذويه يشجعه الا يخاف من عدل الله ورحمته : « كيف اخافه وقد طال ما احببته ! » .

◊

اما المكافأة الصحيحة الجديرة بجهاده والتي منحه الله اياها في عالم الراحة والحقي والنور بعد انطلاق نفسه من رباط الجسد ، فذلك سر من اسرار رحمته وجه الالهيين . والكنيسة ما تزال تصلي ليظهر الله للناس ، متى رأى موافقاً ، سر حياة هذا الرجل البار ويسمح باعلان قداسه .

- ١٠ -

اذا كانت شبيبة عصرنا وبلادنا في حاجة الى فضيحة من الفضائل فدنا حاجتها الى مثل ايمان اوزنام العميق المشر . واذا كانت تشمر بالفراغ يعض حياتها ويدفعها الى السأم والقلق والحسول فلانها اهملت الرجوع الى المثل العليا التي تجي . من فوق ونجبي . معها بالنور الذي يري الحقيقة ناصعة ويجيل الشك ايماناً والملاذ رسوخاً ، والقوة التي لا تستريح الا في النشاط ولا تعمل الا في الفلاح ، والمحبة التي تسر بالتضحية والبذل ، بعيداً عن اللذة الرخيصة والغبطة الكاذبة والفرح العابر السريع التارك وراءه سيلاً من الاسئلة التي لا تجد جوابها الا في محبة الله والاقبال على عبادته وقدرته :

ولعل نمثال اوزنام - وما اقرب ايماننا من ايامه ا - يكون لهذه الشبيبة المثل الحافز والدأمي المجاب والمصباح الذي لا يذهب ضياؤه سدى .

بيروت ٦ كانون الاول، ١٩٥٣

